أولياء الله

قال الله تعالى فى الحديث القدسى:

٧ «مَنْ عادى لى وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىَّ عبدى بشىء أحب إلىَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورِجْله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه»(١).

يقول الحق سبحانه:

﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ . [يونس: ٦٢]

جاءت هذه الآية بعد كلام الحق سبحانه عن نفسه بأنه عالم الغيب، وأنه لا يخفى عليه شىء، فقال:

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾ [يونس: ٦١]

فالحق سبحانه يخبرنا أن كل شىء مهما صَغُر واختفى فهو معلوم محسوب، فكل أمورك يا محمد وأمور الخلق، والمخلوقات كلها معلومة لله تعالى، ومكتوبة فى كتاب مبين واضح.

فالحق سبحانه يعلم أزلاً كل أعمالنا، ولكنه يسجل لنا بالواقع تلك الأعمال والنيات، لنعلم عن أنفسنا ماذا نفعل، لتنقطع حجة من أساء إذا وقع به العقاب.

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) من حديث أبى هريرة. وأخرجه أحمد فى مسنده (٦/٢٥٦) من حديث عائشة.

ولكن الحق سبحانه يريد أن يُعْلمنا أنه قد يفيض على بعض خلقه فيوضات الإمداد على قدر رياضات المرتاضين، فهَبْ أن الله قد امتنَّ عليك بنفحة، فإياك أن تقول: إنهـ من عندك، بل هى من عند عالم الغيب سبحانه الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

وعلى ذلك فلا يقال: إن فلانًا قد عَلِم غيبًا لأنه وَلِىٌّ لله، بل لنقُلْ: «إن فلانًا مُعلَّم غيب»؛ لأن الغيب هو ما غاب عن الناس، وما يغيب عنك ولا يغيب عن غيرك فهو ليس غيبًا مطلقًا، فهو غيب بالنسبة لك وحدك.

ومثال ذلك: الرجل الذى سُرق منه شىء، هو لا يعرف أين يوجد الشىء الذى سُرِق منه، ولكن اللص يعرف، وكذلك من ساعد اللص وأخفاه وأخفى له المسروقات، كل هؤلاء يعلمون، وأيضًا الجن الذين كانوا فى نفس مكان السرقة يعلمون، وهذا ليس غيبًا مطلقًا.

وأيضًا أسرار الكون التى كانت غيبًا موقوتًا، مثل جاذبية الأرض، والسالب والموجب فى الكهرباء، وتلقيح الرياح للسحاب لينزل الماء، كل ذلك كان غيبًا فى زمن ما، ثم شاء الحق سبحانه فحدد لكل أمر منها ميعاد كشف، فصارت أمورًا مشهودة.

إذن: ففى الكون غيب قد يصير مشهدًا، إما بمقدمات يتابعها خلق الله بالبحث، وإما أن تأتى صدفة فى أثناء أى بحث عن شىء آخر.

فقد تجد باحثًا يعمل من أجل كشف معين، فيصادف كشفًا آخر؛ لأن الله تعالى قد أذن لذلك الكشف الذى كان غيبًا أن يُولد، وإن لم يبحث عنه أهل الأرض.

وأغلب أسرار الكون تم اكتشافها صدفة، لنفهم أن عطاء الله بميلادها ـ

دون مقدمات من الخلق ـ أكثر مما وصل إليه بالعطاء من مقدمات الخلق.

ولذلك تجد التعبير الأدائى فى القرآن عن لونى الغيب، تعبيرًا دقيقًا، لنفهم أن هناك غيبًا عن الخلق جميعًا، وليست له مقدمات، ولا يشاء الله سبحانه له ميلادًا، واستأثر الله بعلمه، فلا يعلمه إلا هو سبحانه.

وهذا الغيب قال الحق سبحانه فيه:

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) ﴾ . [الأنعام: ٥٩]

أى: أنه سبحانه لم يُعْط مفتاح الغيب لأحد، بل هو عند الله وحده، فالحق سبحانه يعلم مطلق العلم.

أما الغيب الذى يكشفه الله سبحانه لهم فيقول سبحانه:

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

وقد نسب المشيئة له سبحانه، وهذا هو غيب الابتكارات.

فقول الله: ﴿ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ هو إذن منه سبحانه بأنه سيتفضل على خلقه بأن يشاء لهم أن يعلموا شيئًا من معلومه، فقد كان هذا المعلوم خفيًا عنهم ومستورًا فى أسرار الكون، ثم يأذن الله للسر أن ينكشف.

فكل شىء اكتشفه العقل البشرى كان مطمورًا فى علم الغيب، وكان سرًا من أسرار الله، وبعد ذلك أذن الله للسر أن ينكشف فعرفناه بمشيته سبحانه.

ويقول تعالى:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾

[الجن: ٢٦، ٢٧]

فالله هو عالم الغيب فلا يطلع أحدٌ من خلقه على غيبه إلا من ارتضاه واصطفاه من البشر، فالحق سبحانه يفيض من غيبه الذاتى على بعض خلقه.

وقد أعطى الله سبحانه رسوله ﷺ بعضًا من الهبات، وهو ليس للحصر، فالرسول أسوة وقدوة لغيره، فمن يعمل بعمل الرسول ﷺ ويقتدى به، يهبه الله تعالى هبة يراها لناس، فيعرفون أن من يتبع الرسول ﷺ كقدوة يعطيه الله سبحانه الهبات النورانية.

ولكن هذه الهبة ليست وظيفة، وليست دكانًا للغيب، بل هى من عطاءات الله.

والحق سبحانه عندما يُظهِر غيبه لأحد رسله الذين يختارهم ليعلموا بعضًا من غيبه، فإنه يحميه ويعصمه ويحفظه بالملائكة لتحول بينه وبين وساوس الشياطين وتخليطهم حتى يُبلِّغ ما أوحى به إليه خالصًا من تخليط الجن وعبثهم.

وأولياء الله هم من يفيض الله عليهم من غيبه الذاتى بفيوضات وعطاءات وهبات نورانية.

وعندما نتأمل قول الحق سبحانه:

﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢)﴾ . [يونس: ٦٢]

نجد أن كلمة «ولى» من وليه، يليه، أى: قريب منه، وهو أول مَفْزع

يفزع إليه إن جاءه أمر يحتاج فيه إلى معاونة من غيره، وإن احتاج إلى نصرة فهو ينصره، وخيره يفيض على مَنْ والاه.

فمن يقرب عالمًا يأخذ بعضًا من العلم، ومن يقرب قويًا يأخذ بعضًا من القوة، ومن يقرب غنيًا، إن احتاج، فالغنى يعطيه ولو قَرْضًا.

إذن: فالوليّ هو القريب الناصر المعين الموالى. وتطلق الولى مرة لله سبحانه، فقال: ﴿ فَاللَّهُ هُو الْوَلِيُّ ﴾ . [الشورى: ٩]

لأنه سبحانه القريب من كل خَلْقه، عكس الخلق الذين يقتربون من بعضهم أو يتباعدون حسب إمكاناتهم، أما الله سبحانه وتعالى فهو الولى المطلق، فقربه من خلق لا يبعده عن خلق، ولا يشغله شيء عن شيء، فهو الولى الحق.

وهو سبحانه يقول:

﴿ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ ﴾ . [الكهف: ٤٤]

فمن يحتاج إلى الولاية الحقة فليلجأ إلى الله، وهو سبحانه يفيض على الأوفياء لمنهجه من الولاية ، فهو سبحانه يقرب من عباده المؤمنين، والمؤمنون يقربون من الله تعالى، فالولاية المطلقة لله، وإن قيِّدت بشيء مضاف ومضاف إليه، فهى مرة تكون من المؤمنين لله، ومرة تكون من الله للمؤمنين.

والحق سبحانه لا تحكمه قوانين؛ فبطلاقة قدرته سبحانه إذا رأى فى إنسان ما خصلة من خير، فيكرمه أولاً، فيصير هذا العبد طائعًا من بعد ذلك.

وتسمع مَنْ يقول: إن فلانًا قد خُطف من المعصية أى: أنه كان عاصيًا، ثم أحب الله تعالى خصلة خير فيه، فهداه.

ومثال ذلك: الرجل الذى سقى كلبًا، بل احتال ليسقيه بأن ملأ خفّه بالماء من البئر ليروى ظمأ الكلب، فغفر الله سبحانه وتعالى له سيئاته.

هذا الرجل لم يكن ليروى الكلب نفاقًا للكلب، ولكن لأن الرجل شعر بالعطف على كائن ذى كبد رطبة.

فمن يتبع المنهج يأخذ النور، فإذا علم الله سبحانه عمله بمنهجه فهو سبحانه يقربه قربًا أكثر، فيعطيه هبة اصطفائية يراها الذين حوله، وقد يقتدون به.

والحق سبحانه يقول فى حديث قدسى آخر:

«يابن آدم أنا لك محب، فبحقى عليك كن لى محبًا».

ويقول الله سبحانه:

«أنا عند ظن عبدى بى، وأنا معه إذا ذكرنى، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منهم»[1] .

إن الحق سبحانه يضع مسئولية القرب من الله فى يد الخلق، ويسلم المؤمن مفتاح القرب من الله، فمن يكن من أصحاب الخلق الملتزمين بالمنهج يقربه الله منه أكثر فأكثر.

إذن: فمن الناس من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله، ويدق على باب الحق، فينفتح له الباب، ومن الناس مَنْ يصل بكرامة الله أولاً إلى طاعة الله ثانيًا.

ولله المثل الأعلى: أنت كواحد من البشر قد يدق بابك إنسان يحتاج

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٧٤٠٥، ٧٥٠٥، ٧٥٣٧) واحمد فى مسنده (٢/ ٢٥١، ٣٥٤، ٤٠٥) والترمذى فى سننه (٣٦٠٣) من حديث أبى هريرة . قال الترمذى :حديث حسن صحيح.

إلى لقمة أو صدقة فتعطيه، وهناك إنسان آخر تحب أنت أن تعطيه، وعندما تعطيه يطيعك من منطلق الإحسان إليه، فما بالنا بعطاء الحق لعباده؟

إذن: فمنهم من يصل بكرامة الله إلى طاعة الله، ومنهم من يصل بطاعة الله إلى كرامة الله، وحين يصل الإنسان إلى القرب من الله، ويقرب الله من العبد، هنا يكون العبد فى معية الله، وتفيض عليه هذه المعية كثيرًا.

فإذا أفاض الله سبحانه على بعض خَلْقه هبات من الكرامات فعلى العباد الذين اختصهم الحق سبحانه بذلك أن يُحسنوا الأدب مع الله، وألا يتبجح واحد منهم متفاخرًا بعطاء الله سبحانه له.

فالمباهاة: بالكرامات تضيعها، ويسلبها الحق سبحانه من الذى يتبجَّح بها ويتفاخر ويتباهى، فمن تظاهر بالكرامة ليس له كرامة.

إذن: فالحق سبحانه يريد أن يكون العبد دائمًا فى معيته، وهو سبحانه الذى بدأ وبيَّن بالآية الواضحة أنه سبحانه وليّ المؤمنين، ولذلك سيخرجهم من الظلمات إلى النور، فقال:

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ . [البقرة: ٢٥٧]

فأول ولاية من الله للمؤمنين أنه سبحانه يخرجهم من الظلمات إلى النور، والظلمة المعنوية أقوى من الظلمة الحسية ، وكذلك النور المعنوى أقوى من النور الحسى، فعالم القيم أقوى من عالم الحس؛ لأن الجبر فى عالم الحس يمكن أن يحدث، أما فى عالم القيم فهو أمر شاق.

ويبين الحق سبحانه لنا شروط الولاية، فيقول:

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) ﴾ . [يونس: ٦٣]

والإيمان هو الأمر الاعتقادى الأول الذى يُبنى عليه كل عمل، ويقتضى تنفيذ منهج الله.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [البقرة: ٣]

وقمة الغيب هى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، والإيمان بملائكته وكتبه، ورسله والإيمان باليوم الآخر، كل هذه أمور غيبية، وحينما يخبرنا الله تبارك وتعالى عن ملائكته ونحن لا نراهم، وما دام الله قد أخبرنا بهم فنحن نؤمن بوجودهم، وما دام الله قد أخبرنا باليوم الآخر فنحن نؤمن به، لأن الذى أخبرنا به هو الله جل جلاله، الذى آمنت أنه الإله الحق سبحانه.

وإقامة الصلاة هى الصفة الغالبة فى وصف الذين يؤمنون بالله؛ لأن الصلاة هى الصلة المتجددة بإعلان الولاء لله خمس مرات فى كل يوم.

والنبى ﷺ قال: **«بُنِى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت»** (١).

وهذه الأركان الخمسة هى الدعائم والأسس التى تقام عليها عمارة الإسلام، وأى بيت لا يقوم بالأسس وحدها، ولكن هناك أشياء أخرى كثيرة وعشرات الفضائل، والمطلوبات غير الأسس.

وإذا ما راجع كل واحد منا علاقته بأسس الإسلام فلسوف يجد أنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مرة واحدة فى العمر.

---

(١) متفق عليه أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ومسلم فى صحيحه (١٦) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

ومن بعد ذلك يقيم الصلاة، ثم يؤتى الزكاة، لكن إن كان فقيراً فهو مُعْفىً من أداء الزكاة، وحتى الذى يؤدى الزكاة فهو يؤديها فى وقت واحد فى السنة.

ومن بعد ذلك يصوم رمضان، لكن المريض أو المسافر، أو الذى له عذر فهو يفطر ويقضى الصوم، ويفدى عن الصيام المريض الذى لا يُرْجَى شفاؤه، والعجوز الذى تصيبه بالصوم مشقة شديدة.

ومن يحج البيت يفعل ذلك مرة واحدة فى العمر إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، هذه هى أركان الإسلام، وفيها إعفاءات كثيرة للمسلم، اللهم إلا الصلاة فهى أساس يتكرر.

ولذلك يقول ﷺ: «**رأس الأمر كله الإسلام وعموده الصلاة**» (١).

وما دامت الولاية لله الحق، فلابد أن نستديم فى ولائنا له سبحانه وتعالى، واستدامة الولاء لا تكون إلا بالصلاة.

والحق سبحانه يريدنا أن نكون موصولين به سبحانه، وهذه الصلة تتم بالصلاة فرضًا خمس مرات فى اليوم، وترك سبحانه الباب مفتوحًا لتطوعك، فلا تترك ساعة تستطيع أن تكون فيها بين يدى الله إلا فعلت.

والحق سبحانه يقول فى وصف أوليائه:

﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ . [يونس: ٦٣]

والتقوى هى اتقاء صفات الجلال فى الله تعالى، وأيضًا اتقاء النار، وزاد رسول الله ﷺ فى صفات من تصدر عنه التقوى؛ لأنها مراحل، فقال ﷺ يصف أولياء الله المتقين:

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/ ٢٣١) والترمذى فى سننه (٢٦١٦) عن معذ بن جبل.

«إن من عباد الله لأناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى».

قالوا: يا رسول الله تخبرنا: من هم؟

قال: **«هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم، ولا أموال يتعاطونها، فوالله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»** (١).

ثم قرأ ﷺ هذه الآية:

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) ﴾ . [يونس: ٦٢]

وقد سُئِل عمر ـ رضى الله عنه ـ عن المتقين فقال:

«الواحد منهم يزيدك النظر إليه قربًا من الله».

وكأنه – رضى الله عنه ـ يشرح لنا قول الحق سبحانه:

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ . [الفتح: ٢٩]

فساعة ترى المتقى لله تُسَرُّ وتفرح به، ولا تعرف مصدر هذا السرور إلا حين يقال لك: إنه ملتزم بتقوى الله.

وهذا السرور يُلْفِتك إلى أن تقلده؛ لأن رؤياه تُذكِّرك بالخشوع، والخضوع والسكينة ورقة السَّمْت وانبساط الأسارير.

والواحد من هؤلاء ينظر إلى الكون ولا يجد فى هذا الكون أى خلل، بل يرى كل شىء فى موضعه تمامًا، ولا يرى أى قبح فى الوجود، وحتى حين يصادف القبح فهو يقول: إن هذا القبح يبيّن لنا الحسن، ولولا

(١) أخرجه أبو داود فى سننه (٣٥٢٧) من حديث عمر بن الخطاب-رضى الله عنه .

وجود الباطل ومتاعبه لما عشق الناس الحق، وهكذا يصير الباطل من جنود الحق.

إن وجود الشر يدفع الناس إلى الخير، ولذلك يقال: كُنْ جميلاً فى دينك تر الوجود جميلاً؛ لأنك حين ترى الأشياء وتقبل قدر الله فيها، هنا يفيض الله عليك بهبات من الفيض الأعلى، وكلما تقربت إلى الله زاد اقتراب الله سبحانه منك، ويفيض عليك من الحكمة وأسرار الخلق.

ومثال ذلك: العبد الصالح الذى آتاه الله من عنده رحمة، وعلَّمه من لدنه علمًا، هذا العبد يعلّم موسى ـ عليه السلام ـ فحين قارن بين خَرْق العبد الصالح لسفينة سليمة، ولم يكن يعلم أن هناك حاكمًا ظالمًا يأخذ كل سفينة غَصْبًا، ولِذلك ناقش موسى العبد الصالح. وتساءل: كيف تخرق سفينة سليمة؟

وهنا بيَّن له العبد الصالح أن الملك الظالم حين يجد السفينة مخروقة فلن يأخذها، وهى سفينة يملكها مساكين.

وذلك هو قوله تعالى:

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾. [الكهف: ٧٩]

وحين قتل العبد الصالح غلامًا، كان هذا الفعل فى نظر سيدنا موسى جريمة، ولم يعلم سيدنا موسى ما يعلمه العبد الصالح أن هذا الولد سوف يسىء إلى أهله، وأمر الله العبد الصالح بقتله قبل البلوغ حتى لا يفتن أهله، وسوف يدخل هذا الولد الجنة، ويصير من دعاميص الجنة.

وذلك هو قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا

طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ [الكهف: ٨٠، ٨١]

وأيضًا حين دخل سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ مع العبد الصالح إلى قرية واستطعما أهلها فرفضوا أن يطعموهما، وطلب الطعام هو أصدق ألوان السؤال، فأبى أهل القرية أن يطعموهما، وهذا دليل الخسة واللؤم، فأقام العبد الصالح الجدار الآيل للسقوط فى تلك القرية.

ولم يكن سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ قد علم ما علمه العبد الصالح من أن رجلاً صالحًا قد مات وترك لأولاده كنزًا تحت هذا الجدار، وبناه بناية موقوتة بزمن بلوغ الأبناء لسن الرشد، فيقع الجدار ليجد الأبناء ما ترك لهم والدهم من كنز، ولا يجرؤ أهل القرية اللئام على السطو عليه.

وذلك قوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾. [الكهف: ٨٢]

إذن: هذه هبات من فيض الحق سبحانه على عباده الصالحين، وهو سبحانه وتعالى يجعل مثل هؤلاء العباد كالصوارى المنصوبة التى تهدى الناس، أو كالفنار الذى يهدى السفن فى الظلمة.

إذن: فهؤلاء الأولياء يتلقون من فيوضات الله عليهم بواسطة الملائكة، ويتميزون عن غيرهم؛ لأن الواحد منهم قد يفرض على نفسه نوافل فوق الفروض؛ لأن الفرض هى أقل القليل فى التكاليف.

وقد يرى الواحد منهم أن القيام بالفروض لا يتناسب مع حبه لله

تعالى، فيزيد من جنسها على ما فرض الله، ويصلى - بدلاً من خمسة فروض - عشرة أخرى نوافل، أو يصوم مع رمضان شهرًا أو اثنين، أو يصوم يَوْمى الاثنين والخميس من كل أسبوع.

وهذا دليل على أنه وجد أن الفروض قليلة بالنسبة لدرجة حبه لله تعالى، وأن الله يستحق أكثر من ذلك، وهذا معناه أن مثل هذا العبد قد دخل فى مقام الود مع الله تعالى.

وهنا يفيض الله سبحانه وتعالى عليه بما يشاء، وينال من رضوان الله ما جاء فى هذا الحديث القدسى:

«فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورِجْله التى يمشى بها».

وهكذا تختلف المقاييس بين عبد يحب الله تعالى ويؤدى فوق ما عليه، وعبد آخر يقوم بالتكاليف وحدها.

وعندما يزيد الإنسان على ما كلفه الله أن يصلى الخمس المطلوبة ثم يجعلها عشرة، ويصوم شهر رمضان ثم يصوم يومى الاثنين والخميس، أو كذا من الشهور ويزكى حسب ما قرر الشرع باثنين ونصف فى المائة، وقد يزيد الزكاة إلى عشرة فى المائة، ويحج ثم يزيد الحج مرتين.

إذن: فالمسألة أن تزيد على ما افترض الله، فيكون قد أدخلك الله فى مقام الإحسان؛ لأنك حين جربت أداء الفرائض ذُقْتَ حلاوتها، وعلمت مما أفاضه الله عليك من معين التقوى ومن رصيد قوله:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾. [البقرة: ٢٨٢]

علمت أن الله يستحق أكثر مما كلفك به.

ولذلك فبعض الصالحين فى أحد سبحاته يقول: «اللهم إنى أخشى ألا تثيبنى على الطاعة لأننى أصبحت أشتهيها».

أى: صارت شهوة نفس، فهو خائف أن يفقد حلاوة التكليف والمشقة فيقول: يا رب إنى أصبحت أحبها، ومفروض منا أننا نمنع شهوات أنفسنا لكنها أصبحت شهوة، فماذا أفعل؟

إذن: فهذا الرجل قد دخل فى مقام الإحسان، واطمأنت نفسه ورضيت، وأصبح هواه تبعًا لما أمر به الله ورضيه.

ولذلك يجب أن نلحظ أن الحق سحانه حينما تكلم عن المتقين قال:

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ . [الذاريات: ١٥، ١٦]

لماذا هم محسنون يا رب؟

يقول الحق سبحانه:

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾. [الذاريات: ١٧]

وهل كلفنا الله ألا نهجع إلا قليلاً من الليل؟ إن الإنسان يصلى العشاء من أول الليل وينام حتى الفجر، هذا هو التكليف، لكن أن تحلو للمؤمن العبادة، ويزداد الإيمان فى القلب والجوارح، ويأنس العبد بالقرب من الله، فالحق لا يرد مثال هذا العبد، بل إنه يستقبله ويدخله فى مقام الإحسان.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾. [الذاريات: ١٦ ـ ١٨]

وربنا لم يكلفهم بذلك، إنما كلفهم فقط بخمسة فروض، ونعرف قصة الأعرابى الذى قال للرسول ﷺ: هل علىَّ غيرها؟ قال له: لا، إلا أن

تطوَّع وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة، فقال: هل علىَّ غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوَّع. قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله ﷺ: «أفلح إن صدق»(١).

وبذلك دخل هذا الأعرابى فى نطاق المفلحين، أما الذى يزيد على هذا فيدخله الله فى نطاق المحسنين.

والحق سبحانه يقول:

﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ﴾ . [الأنعام: ١٢٥]

أى: يجعل الأمور التى يظن بعض من الناس أنها متعبة، فإنه بإقباله عليها وعشقه لها يجدها مريحة ،ويقبل عليها بشوق وخشوع.

والزيادة على ما فرضه الله، ومن جنس ما فرض يكون لها ملحظان:

الأول: أن العبد يشهد لربه بالرحمة، لأنه كُلِّف دون ما يستحق.

الثانى: أن عمل الطاعة قد خفف على المؤمن فاستراح بها.

إذن: فالمطوِّع هو الذى يزيد على ما فرض الله عليه من جنس ما فرض الله، وهؤلاء هم المحسنون.

وهذه الزيادة هى النافلة، أى: زيادة عن الفريضة الواجبة، وفى هذا المعنى يقول ربنا عز وجل:

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [الإسراء: ٧٩]

لذلك نقول: إن النفل هو العبادة الزائدة، وشرطها أن تكون من جنس ما فُرض عليك؛ لأن الإنسان لا يعبد ربه حسب هواه الشخصى، بل يعبد العبد ربه بأى لون من ألوان العبادة التى شرعها الله.

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦) ومسلم فى صحيحه (١١) من حديث طلحة بن عبيد الله.

وإذا أراد زيادة فيها فلتكن من جنس ما فرض الله، حتى لا يبتدع العبد عبادات ليست مشروعة.

ثم يقول رب العزة فى هذا الحديث القدسى:

«وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيذنه».

يقول الحق سبحانه فى قرآنه:

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ . [الأعراف: ٥٥]

الدعاء إنما يكون من عاجز، يدعو قادرًا على إنجاز وتحقيق ما عجز عنه، أو يعينه عليه، وعندما تشعر أنك عاجز فأنت ترتكن إلى من له مطلق القدرة؛ لأن قدرتك محدودة.

إذن: فإن كنت ممن يطغى أو يتكبر فاعرف مكانتك ومنزلتك جيدًا وتراجع عن ذلك؛ لأنك عرض زائل.

والدعاء: هو تضرع وذلة وخشوع وإقرار منك بأنك عاجز، وتطلب من ربك المدد والعون، واستحضار عجزك وقدرة ربك تمثل لك استدامة اليقين الإيمانى.

وإياك أن تدعو وفى بالك أن تقضى حاجتك بالدعاء، عليك بالدعاء فقط لقصد إظهار الضراعة والذلة والخشوع، ولأنك لو لم تدع فستسير أمورك كما قدر لها.

فاجعل حظك من الدعاء هو الخشوع والتذلل والضراعة له سبحانه، لا إجابتك إلى ما تدعو إليه، إنك تدعو لتطلب الخير، فدع الحق بقيوميته وعلمه يحقق لك الخير.

واجعل دعاءك دعاء مستورًا مختبئًا، خفية بينك وبين ربك، فلا تجهر

بالدعاء، فالدعـاء إلى الله خفية يبتعـد بك عن الرياء، وهو أستر لك فى مطلوباتك من ربك.

ادعنى فى سرّك لأننى سميع عليـم، أعلم كل ما ظهر منك وما بطن، ادع بالخضـوع والخشوع والتـذلل، لتنكسر فيك شـهوة الكبرياء، وشـهوة الغطرسة، وشهوة الجبروت.

وينبـهنا الحق سبـحانه وتعالـى أن ندعوه بالأسـماء الحسنى فـى قوله: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾. [الأعراف: ١٨٠]

لأنه يريد من خـلقـه دائمًا أن يذكـروه، لأنه هو الـرب الذى خلق من عَدَم، وأمدَّ من عُدْم، وصان الخلق بقيوميته، وحين تأتى لك حاجة وجب عليك أن تذكر أسماء الله الحسنى وتنادى الله بها.

والله سبـحانه فى عطائه يحب أن يطلب منه الإنسـان، وأن يدعوه وأن يسـتعين به، وهذا يوجـب الحمـد؛ لأنه يقينـا الذل فى الدنيا، فـأنت إن طلبت شيئًا من صاحب نفوذ، فلابد أن يحدد لك موعدًا أو وقت الحديث ومدة المقابلة، وقد يضيق بك فيقف لينهى اللقاء.

ولكن الحق سـبحانه بابـه مفتـوح دائمًا، فأنت بين يديه عندمـا تريد، وترفع يديك إلى السماء، وتدعو وقتما تحب، وتسأل الله ما تشاء فيعطيك ما تريده أن كان خيرًا لك، ويمنع عنك ما تريده إن كان شرًا لك.

والله سبحانه وتعالى يطلب منك أن تدعوه وأن تسأله فيقول:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِيـنَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾. [غافر: ٦٠]

فالله سبحانه يعرف ما فى نفسك، ولذلك فإنه يعطيك دون أن تسأل.

يقول رب العزة سبحانه فى الحديث القدسى:

«من شغله ذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين».

فالله سبحانه عطاؤه لا ينفد، وخزائنه لا تفرغ، فكلما سألته جل جلاله كان لديه المزيد، ومهما سألته فإنه لا شىء عزيز على الله سبحانه وتعالى، إذا أراد أن يحققه لك.

❊ ❊ ❊

obeikan.com